الفصل الخامس

من تجاربي في القارة

يبدو أن اجتهادي في الأبحاث التي أجريتها في الشؤون الإفريقية عن استقلال الدول الإفريقية بدا جديرًا بالمكافأة، وإذ بي ضمن قرار جمهوري بسفر وفد للتهنئة بإعلان استقلال تنجانيقا عن بريطانيا، التي كانت ورثتها بدورها من ألمانيا. وكان الوفد يضم وزير التعليم العالي د. عبدالعزيز السيد، والسيد محمد فايق، وشخصي الضعيف. كانت مسألة كبيرة بحق في بداية عملي، لم تخل من قيمة ودلالات، كتبتُ عنها مرة على موقعي النص التالي:

أ. في تنجانيقا

وقائـع مشـاركتي في احتفالات اسـتقلال تنجانيقـا 1961: طرائف ودلالات

وصلـتْ الدعـوة إلى الرئاسـة طلبًـا لحضـور وفد مـصري لهذه المناسبة...

قال المسئولون الإنجليز، موجهو الدعوة – كمستعمرين للإقليم– يجـب أن يلبس كل أعضاء الوفد المشـارك " الفـراك "Frac"..! لأن ممثل الملكة سـيكون نجم احتفال تسـليم علم الاستقلال في Uhuru Celebration احتفالات "الحرية" للمستعمرة في 9 ديسمبر 1961. ولم يعرف السـيد محمد فائق عضو الوفد ولم أعرف بدوري مدى معرفة د. عبد العزيز السـيد وزير التعليم العالي ورئيـس الوفد عندئذ– ما هو شـكل "الفراك" هذا ! وإذ به ذاك "البالطو أبو ديل" الذي يلبسه عظماء المناسبات...! وعلمت بعد ساعات أن "الرئاسة " قالت إننا في ثورة يوليو لا نلبس إلا البدل التقليدية، وسيبكم من أوهام الإنجليز هذه، فتجاهلنا الأمر...!

كنت طازج التعيين في الشؤون الإفريقية منذ ديسمبر 1960، وأبدو من "الشـطار"، مما رشحني أن أشـارك في هذا التمثيل عالي المستوى ولم أتجاوز الخامسة والعشرين، ولم يكن عبد العزيز السيد كأب ريفي تقليـدي يناديني إلا بـ"واد يا حلمي" بينما يحتاج لأدق الإجابات عن

تلك المستعمرة والإنجليز الأوغاد! وكان كبرياؤه يأتي من علاقته الخاصة أيضًا بعبد الناصر، التي يعرفها الكثيرون خلال الإعداد ليوليو 1952. كنت أشعر بذلك من تعامل محمد فائق معه، وعندما نزلنا من الطائرة، اكتشفنا أن فيها محمد ياسين وكيل الخارجية السودانية، وإذ بوزيرنا – بخبرته في الخرطوم قبلًا – يقول له: "يا واد يا محمد، انت بترتب تدخَل السودان في الكومنولث؟ فبهُتِ الذي خدم تلك الفكرة الخبيثة لفترة ليقول: معاليك.. لا تفهمها هكذا..." وكانت الإشارات داخل الكلام عن حزب الأمة الذي ينتمي إليه ياسين! لكني وجدت عبد العزيز السيد، ينتقل معه بسرعة..." إزاي ولادك يا محمد... إبعتهم لي يابني ندخلهم الجامعة عندنا!".

مع نزولنا من الطائرة في دار السلام..وجدنا خواجة إنجليزي، مفتول العضلات، عريض المنكبين يقترب، بما فهمنا أنه مدير البروتوكول المستقبِل لنا يلبس الشورت في حر ديسمبر بدار السلام، مع ما يشبه "الشبشب". وإذ بعبد العزيز السيد ينتفض محتجًّا مقسمًا– ونحن على سلم الطائرة – أنه "لن يسلم على ابن...ده" الذي أرسلوه بالشورت لمقابلة ممثل جمال عبد الناصر! لكن محمد فائق بلباقته انتبه إلى ضرورة تدارك الموقف... فذاك يوم "أوهورو" (Uhuru Day) أو يوم الحرية، ولندعه يَمُرّ. واستقرينا في فندق "بالم بيتش" المعروف سياحيًّا، ولكن ليس دبلوماسيًّا. أدرك عبد العزيز السيد أن "هؤلاء الإنجليز" يعبرون

عن مخاوفهم وأحقادهـم من عبد الناصر في أصغر المظاهر وأكبرها. وجدته ينبه محمد فائق أن يدرس شكل حضورنا في مقر الاحتفالات بالإسـتاد، وسياراتنا وفي حفل الاستقبال، وموقعنا على المنصات... إلخ، منتبهًا للمعنى السابق تجاه الإنجليز، واقترب "فايق" بمهارة من "التنجانيقيين" ليرتب الأمر بالشكل المعقول.

كانت سياسة بريطانيا في التوافق مع "جوليوس نيريري" – رئيس وزراء تنجانيقا حتى 1961 ثم رئيس تنزانيا المستقلة بعد 1963– ضد هوجة "التحرير" والتقدميين – حسب تعبيرهم – في الجنوب الإفريقي، أو وسط إفريقيا والبحيرات، مما لم يجعل "التنجانيقيين" ضمن "مجموعة حركات التحرير" في القاهرة قبل الاسـتقلال، فكانت معارفنا قليلة بين كوادرهم (إلا شخصية أو اثنين من المعارضين لا أذكرهم الآن). لكن سرعان ما قام بالالتفاف حولنا زعماء من أوغندا وكينيا وروديسيا وجنوب إفريقيـا جامعين آخرين في ألفة كبـيرة، وممن نعرف منهم: جون كالي، وجوشوا نكومو، وأوليفر تامبو، وموخيخلي. وقد أدهش ذلـك قيادات "حزب تانو" (الحاكم في تنجانيقا ثم تنزانيا). ولم يكن نيريري سعيدًا بعمق علاقات مصر الإفريقية هذه، خاصة وقد تطلع إلى مثلها في بلده كثيرون، على رأسـهم شخصية مثل أوسكار كمبونا القيادي بالحزب الذي أطيح به لاحقًا. وأظن أن ذلك جعل "التنزانيين" ينشطون عند قيام "منظمة الوحدة الإفريقية" وبعد اتحادهم مع زنجبار

ليجعلوا من دار السلام مقرًّا لحركات التحرير في الجنوب، لمنافسة أكرا والقاهرة والجزائر على السواء... لكن ذلك في النهاية كما فكرت يومًا جعل النيل محور التحرير من منبعه إلى مصبه..

بعد يومين أو ثلاثة من الاحتفالات جاء موعد رحيل الوفد، وإذ بي أتجرأ مع السيد الوزير عبد العزيز السيد ومحمد فائق لأقترح استمراري وحدي بضعة أيام، أضيف فيها بعض المعارف لحصيلتي، وقد بدت "شطارتي" أمامهما طوال الإقامة! وفوجئت بسؤال محمد فايق: معك إسترليني؟ كان بدل السفر 6 إسترليني لليوم، وجمعتُ وطرحتُ حتى أجبت بإمكان تدبيرها! واستمريت حوالي أسبوع آخر. كانت المشكلة أني أحمل جواز سفر "مَهَمّة" ولا يبدو فيه عدد أيام الإقامة. لم أشعر بذلك إلا وأنا في المطار للخروج... وبدا ضابط الجوازات "الإنجليزي" الذي ينقل الإدارة للتنجانيقي "راغبًا في الرزالة"، لوجودى بدون إقامة. ولكن حل المواطن المسئول المشكلة بمودة واضحة.

أتذكر أني رصدت حوالي أربعين مقابلة في دار السلام ومحيطها خلال الأسبوع، مع نقابيين وحزبيين ومثقفين، وآسيويين وعرب وإسماعيليين ممن يؤيدون "المجتمع متعدد الأجناس" (multiracial) الذى يبشر به نيريري لضمان السلم الاجتماعي، وتنوعت الاتجاهات بين من يحللون طموح "أوسكار كمبونا"! أو من يريد جذب "زنجباريين"،

ومن يكرههم، ومن يقبل بدور لتنجانيقا في تحرير الجنوب مثل دور جمال عبد الناصر بين العرب والقارة، ومن يكتفي بإقامة اتحاد شرق إفريقيا بعيدًا عن مشاكل "الوحدة" النكرومية أو نضالية لومومبا التي أودت بحياته، وكان أول تقرير ميداني لي ما زلت أعتز بكتابته... وإن صعب الآن أن يعثر عليه أحد!

ما زلت أتذكر شارع الاستقلال، وميدان "أسكري سكوير" وفي وسطه ذاك العسكري بطربوشه التركي المنتشر بين الشرطة والعسكر في أنحاء إفريقيا والشورت الإنجليزي!

سألت يومًا البروفيسور عيسى شيفجي أحد شخصيات جامعة دار السلام، ومجلس "كوديسريا"، وزميلي من قبل في جمعية العلوم السياسية الإفريقية – بعد أن حكيت بعض وقائع يوم الاستقلال هذا– أين كنت يوم عيد أوهورو هذا؟ فضحك وقال: كنت في المرحلة الابتدائية! فكدت أستبعده من الجلسة!

حصاد الرحلة

عدنا من تنجانيقا محملين بالأفكار والعلاقات والمعلومات، وشعرت في الشارع التنجانيقي بمكانة معلمي جوليوس نيريري، باعتبار أنه كان معلمًا بالفعل. كما شعرت من أحاديثهم بالسواحيلية أننا نبالغ فيما سمي أثر

اللغة العربية على السواحيلية إلا في كلمات شهيرة مثل جمهور وعسكري، و"خباري" (ما أخبارك) أسـنتو سـانيا (أحسنت...) وبعدها عرفت أنها من عائلة لغات البانتو وليست سامية ومِنْ ثَمَّ لا داعي للسفسطة العربية السائدة عن أثر العربية في لغات العالم!

كذلك عرفت معنى فلسـفة "نيريري" السابقة على الاستقلال، وهي في التحليـل الاجتماعي أكثر منها في الفلسـفة، وذلك عن المجتمع متعدد الأجناس Multiracial Society، إشارة إلى قبوله بحجم الآسيويين الكبير متعددي الأصول إلى جانب الأفارقة، وقليلًا مايعني ذلك إضافة الجماعات العربية، إلا مع الميل السائد لاعتبار معظم المسلمين في تنجانيقا من أصل عـربي كالعادة في أنحاء إفريقيا حين يكون المسـلمون أقلية. ورغم نسـبة المسـلمين العالية في المجتمع بما يكاد يصل إلى 50 % فإن الإشارة محدودة إلى ذلك رغم استمرار فلسفة مجتمع متعدد الأجناس.

لكن الأهم من ذلك كان إحساسـهم بأنهم على بحيرة فيكتوريا، وأن لذلك صلة بنا، لا يتناولونها في ذاتها، قدر الإشارة إلى أطماع مصر العربية في النفـوذ أو النفـاذ بالتأثير العربي على المسـلمين والعـرب. كما كان ثمة خوف من علاقة العرب بالناصرية في زنجبار – الجزيرة الصغيرة والمؤثرة بأكبر من حجمها. ولم يكن هناك بعد تأثير مختلف في تنزانيا خارج الصلة ببريطانيا والنظام الإنجليزي المتعاظم، رغم أنهم لم يأخذوا منه تمثلًا حقيقيًّا للديمقراطية، فلم تتح السلطة الجديدة حرية التنظيم إلا لحزب واحد هو

الاتحاد الوطني الإفريقي "تانو" TANU، مع وجود آخر هزيل باسم "المؤتمر"، كما أن التعليم يحتاج لميزانية لا تتوفر لبلد فقير مثل تنزانيا.

وبتأثير من الآسيويين وأكثرهم من الهنود، فإن "الغاندية" هنا كانت قوية التأثير، ومِنْ ثَمَّ فلا تتيح مجالًا للغة "الثورية" الشائعة هنا وهناك، كما أن قناعة نيريري نفسه هي أن شعبية "غاندي" تؤجل التفكير "الثوري"، لكنه يفاجأ بظهور جيل الجامعة الجديد الذي ينتقل من الغاندية إلى "الماوية" إعجابًا بماو تسي تونج، وسخطًا على السوفيت، ولم أعرف لذلك سببًا مباشرًا إلا تطور "نيريري" نفسه إلى فكرة "الأوجاماعا" (Ujamaa) أي الجماعية الإفريقية من وحدة القرية إلى تعاونية المدينة، بما انتقل به الشباب من تأثير الهند إلى نفوذ الصين!

وأظن أن هذه التركيبة هي التي جعلت حزب "تانو" بعيدًا عن وصف نفسه كحركة تحرير أو حزب ثوري، يحضر مؤتمرات التضامن الأفرو آسيوي أو يطالب بتمثيله مع حركات التحرير في القاهرة، كما لم يرحب بثقل كتلة "الدار البيضاء" أو مجموعة الدول المتحررة، وانضم إلى زاعمي "التوفيق" مثل إثيوبيا، لتبرير الابتعاد. فهمت أيضًا من زخم "استيعاب دار السلام" لقيادات كينيا وأوغندا وبوروندي... الشباب والكبار، كيف يصمم "نيريري" على فكرة بناء "اتحاد شرق إفريقيا" أولًا حتى قبل الاستقلال، وأنه يود أن يعلن ذلك مع كينيا وأوغندا من الآن، ولو أَجَّلَ استقلال تنجانيقا كما يشاع، وكان ذلك ردًّا – غير مباشر بعد ذلك – على دعوة نكروما لإعلان

"الولايات الإفريقية المتحدة"، وأن استقلال أي بلد إفريقي لا يكتمل قبل استقلال كل إفريقيا واتحادها.

كنا في القاهرة نعرف بمطامح نيريري ولكنا لا نستطيع أو نرغب في مهاجمته، لأن مصر نفسها لم تكن مع الطرح "الثوري" للوحدة الإفريقية على طريقة نكروما، ولا مع تعويقها على طريقة نيريري، ولذا سرعان ما انضمت لمعسكر توفيقي ضم سيكوتوري وإمبراطور إثيوبيا "هيلا سلاسي" لضم جماعة الدار البيضاء "كازابلانكا" إلى مشروع منظمة الوحدة الإفريقية.

وبروح مصر هذه متعددة الأبعاد اقتربنا من أبناء شرق إفريقيا والمطلين منهم خاصة على بحيرة فيكتوريا. توثقت علاقتنا أثناء الاحتفالات في دار السلام وبعدها، بأوجنجا أودنجا نائب جومو كنياتا في رئاسة حزب كانو KANU، وكذا زعماء المؤتمر الوطني الأوغندي UNC وقيادات "الاتحاد الوطني لرواند – بوروندي UBRUNA"، كما كانوا في تكوين شبه اتحادي، ولأننا كنا على صلة وثيقة بالإريتريين في بدايات تشكيلهم الجبهوي، وإطلاق زعيمهم المحلي حامد عواتي لما سمي بالطلقة الأولى أول الستينيات، فقد بدا لي واضحًا أننا بتنا نواجه بشكل مناسب مطامح وقلق إسرائيل بالفعل من مصر إزاء رغبتها في محاصرة مصر من حوض النيل، كما تحاول في المشرق مع الأردن وبالضغط على سورية ولبنان.

لا أنكر أن مصر كانت تتبع سياسة براجماتية واضحة، ولكن ليس بقصد البعد الانتهازي للبراجماتية، كما كان يحلو للبعض إطلاق الملاحظة

على سياستنا، حين كنا نقترب من تيارات متعددة الوجوه في القارة. فقد كان لنا مواقف إيجابية صلبة، حتى وصلنا إلى حد الحرب الواضحة لننقذ لومومبا في الكونغو، وظللنا مع جيزنجا ومولييلي حين التجئوا للنضال من شرق الكونغو، ووقفنا مع الجزائر في أزمة صراعها حول منطقة تندوف على الحدود، حين شعرنا أن المغرب تضغط على استقلالية الجزائر، وساندنا أودنجا وجناح الحركة العمالية الذي يؤيده في كينيا، ضد توم مبويا المنتمي "للاتحاد الدولي الحر" للعمال ببروكسل، بل واتخاذه كافة المواقف المؤيدة للغرب تجاه كينيا، بينما زعيمها كنياتا في السجن. وقد رأيت بنفسي بعد ذلك كيف كانت مصر تدفع مكافأة المحامي الذي كان يدافع عن كنياتا (إيصال بعشرة آلاف إسترليني) حملها زميله مورومبي إلى لندن، حتى خرج في مساومة لتأكيد اعتداله بتصريحاته قبل استقلال كينيا، رغم أن أي مصادر مصرية أو غربية لا تُردد ذلك.

في دار السلام أيضًا اقتربنا بشكل مناسب من قيادات الجنوب الإفريقي ومعظم قيادات التحرر الموجودة ذلك الوقت. كان د. عبدالعزيز السيد وزير التعليم العالي ورئيس الوفد يدهش لتحركات محمد فايق أو لحركتي المتسارعة بين أعضاء الوفود الوطنية، والذين نقدمهم له بالضرورة، اعترافًا بقيمتهم، وتقديرًا لروحه الوطنية المستقبلة لهم بالترحاب، بل وكثيرًا ما تعب من ذلك صارخًا: "إيه شغل الشياطين ده يا محمد... إنتوا مخابرات والا إيه؟". وكنا سعداء فعلًا بما حصلنا...

تعرفنا جيدًا على قيادات صار بعضها أصدقاء لي شخصيًّا مثل الراحل "جوشوا نكومو" من روديسيا الجنوبية (زيمبابوي عند استقلالها) ونائب رئيس الجمهورية لها، وروبين كامنجا من روديسيا الشمالية (زامبيا بعد الاستقلال) وهو أيضًا أول نائب رئيس جمهورية فيها، أو دوس سانتوس من قيادات الفريليمو موزمبيق، إلى جانب من برزوا بحجم بلادهم مثل أوليفر تامبو نائب رئيس حزب المؤتمر الوطني الإفريقي ANC بجنوب إفريقيا، أو موخيخلي (رئيس وزراء باسوتو بعد ذلك)...إلخ. وقد دعا السيد فايق معظمهم إلى القاهرة ليفتتح بعضهم مكاتب حركة التحرير التي يقودها أو يدعم ممثلها الموجود بالفعل.

شعرنا كيف أقلق ذلك قيادات تنجانيقا في برودة ترحيب ملحوظة. واكتشفت بعد ذلك أن مصدر القلق لم يكن مجرد الصلة بحركات تحرير تحيط ببحيرة فيكتوريا من جهة، بل ونفاذ مصر إلى قيادات أقاليم الجنوب الإفريقي (من موزمبيق حتى جنوب إفريقيا)، بما يعنى ذلك من احتمال تسلل "العنف الثوري" إلى جوار تنجانيقا مباشرة، وهي الغاندية المسالمة، ووصول عبد الناصر إلى أنحاء شرقي وجنوبي إفريقيا بهذا الشكل. وقد حاولت خلال بقائي في دار السلام وحدي أن أتوجه بالقارب الذي يغدو ويروح إلى زنجبار في حدود الساعة. بل وكلمت السيد علي محسن زعيم الحزب الوطني في زنجبار الذي عرفته أثناء إشرافي على بيت شرق إفريقيا، ورحب الرجل بي ووصف لى الطريق. وإذ بمقاومة "الإداريين" التنجانيقيين شديدة للفكرة، من عقبة جواز السفر حتى عقبة الأمن...

ونصحني الأصدقاء، تنجانيقيين وغرباء، بل وعبد الرحمن بابو نفسه، وهو الثوري الزنجباري، بالتوقف عن ذلك "لحساسية علاقتكم – يعني مصر – بزنجبار" خاصة. كان الوزير عبد العزيز السيد والسيد فايق قد سافرا وأنا وحدي في هذا البلد، كانت المحاولة وإن اتسمت بالسلام والهدوء الفعلي، لكنها تحمل مشاعر كافية لإبعادي بطريقة غير كريمة، فعزفت عن الفكرة. لكني استفدت كثيرًا من طبيعة خلفيات الدول بل والشعوب إزاء الآخر لأسباب أعمق مما نتصور.

ب. في زنجبار

من هنا كانت حكايتنا مع استقلال زنجبار... حكاية تستحق القراءة بدورها كما كتبتها يومًا.

حضور احتفال استقلال زنجبار

كما ذكرت رشحتني مهمتي الناجحة في إدارة البعثة الطلابية في "بيت شرق إفريقيا" (East Africa House)، إلى تعييني بالشؤون الإفريقية بالرئاسة آخر 1960 ثم لأسافر في وفد مصر إلى احتفالات استقلال تنجانيقا ديسمبر 1961 وها هي ترشحني مرة أخرى عضوًا في وفد مصر إلى احتفالات استقلال زنجبار في ديسمبر 1963.

كان مكتب الحـزب الوطني لزنجبار قائـمًا في الرابطة الإفريقية، وعلى رأسـه سـليمان مالك (مثقف غير راضٍ عن وضعه في الحزب ولا الوضع في المجتمع الزنجباري)، ومعه شـخصية إفريقية أخرى لا أذكر اسمها، وهناك في البرنامج السواحيلي بالإذاعة الموجهة أحمد رشاد (مخلط إفريقي عربي ساخط على القيادة العربية للحزب)، ومبارك خلفـان رئيس اتحاد طلبة زنجبار الذي تدفعه الثقافة الجديدة لرفض تمايز العرب في زنجبار.

كان لزنجبار "لوبي" في مصر من د.عبده سلام (صاحب نفوذ في الاتحاد الاشتراكي) ورجل الأعمال فتحي صبري (تاجر كبير مع شرق إفريقيا)! والدكتورة نور، "مخلطة" مصرية زنجبارية، أستاذة بجامعة الإسكندرية، والعبد الفقير، وبعض رجال التعليم... إلى جانب حماس محمد فايق طبعًا. كما كان بعض المحيطين بالشيخ علي محسن يعرفون رجال الأزهر بل وبعض وجوه الإخوان واليسار. كان هذا اللوبي في النهاية يصب في خانة عروبة زنجبار وأهميتها في شرق إفريقيا. وكان مبلغ وعيي شـخصيًّا هو أهميتها في العلاقـات العربية الإفريقية عند اسـتقلالها إذا اهتممنا بدعم أفارقة زنجبـار مثل عربهم، لأن صورة زنجبار بسـلطان عماني الأصل لم تلق ترحيبًا لدى كل عناصر اللوبي المذكور في مصر...كانت العائلات العربية بادية التسلط على المجالس وزراعة وتجارة القرنفل على السواء، وشعرت كثيرًا أن علي محسن نفسه

يريد التخلص من هذا العبء، وأنه تبادل هذا الشعور مع عبد الناصر في لقائهما السابق الإشارة إليه وأنه يريد ذلك بالتوافق بين الأعراق لا بالاتجاه يسارًا بهدف نسف النظام والسلطان!

في مقابل ذلـك كان ثمة لوبي حزبي محيط بعلي محسـن في الجزيرة (المعروفة باسم نجوجي)، فثمة عربي متطرف (سيف) ووطني متوازن (أحمد اللمكي) وثمة يسار ماوي الاتجاه على رأسه الأمين العام عبد الرحمن بابو ومساعده سالم أحمد سالم وآخرون....

ووسـط هذا لجأ علي محسن لنمط من التوازن بتحالف مع حزب أفروشيرازي المعتدل بزعامة محمد شامتي، والذي يتخذ مواقف توفيقية تجتذب ذوي الأصول الإيرانية القديمه (الشيراز) والعرب المتإفريقين غالبًا.

و بمعنى ما أصبحت زنجبار عام 1962 وقبل الاستقلال بشهور تمثل عند زعماء شرق إفريقيا التقليديين أحد احتمالين، إما قنبلة عروبية، ناصرية (علي محسـن)، أو قنبلة ماركسية ماوية (عبدالرحمن بابو)... وكلاهمـا مر!؟ لكن الذي حدث في ينايـر 1964 أن انفجرت القنبلة العنصرية! أو قل العرقية (أفارقة/ عرب) رغم القول بعد الاستقلال أنها أصبحت.."كوبا إفريقيا" بسـبب سـيطرة يساريين مثل بابو بعد الثورة، ولبعض الوقت.

بدا أن الإعداد لاحتفالات الاستقلال في زنجبار هو قمة التعبير عن مأزق الشركاء العرب والأفارقة والشيرازيين هناك وأنه مطلوب من "علي محسن" إحداث توازن ذهبي لإنقاذ الموقف من انفجار إفريقي يعتبر الاستقلال جائزة للعرب وحدهم... وفي نفس الوقت أراد علي محسن أن يقيم احتفالًا كبيرًا يضع زنجبار في قلب شرق إفريقيا رغم صغرها...

أذكر أنه حدثني كثيرًا عن إعجابه بعبقرية عبد الناصر في استخدام الإعلام لبناء شخصيته وشخصية مصر في إفريقيا، وكان يسألني -بحكم تصوره أني خبير خطير في الرئاسة! - كيف يرتب عبد الناصر ذلك؟ ولا أظن أني أفدته كثيرًا! ولكنه ظل دائم الاهتمام بمسألة الدعاية الإعلامية حتى بدا لي أنه وضعها ضمن طلبه من عبد الناصر المساعدة في إنجاح الاحتفال الكبير بالاستقلال. وفهمت أن الرئيس لا بد وَجَّه محمد فايق إلى الاستجابة للشيخ علي محسن!

طلب الزعيم علي محسن حضور كل أشكال التعبير المصرية التي تفيد الاحتفال. فصاحبت وفدًا يضم أكثر من مئة عضو على رأسه أنور السادات وهو رئيس مجلس الشعب في مصر، ومعه محمد فايق وضم أيضًا الشيخ محمود خليل الحصري قارئ القرآن المرتل الشهير في العالم الإسلامي، حتى فرقة رضا للرقص الشعبي الشهيرة أيضًا، وفريق كرة

وصحفيين، ومذيعين، واستمتعت شخصيًّا بصحبة الكثيرين. وبدا أن الشيخ علي محسن يريد تطبيق المقولة الشائعة: "إن عزف المزمار في زنجبار، يرقص عليه الأفارقة على ساحل فيكتوريا." وبالفعل أصبح الأهالي المتأثرين بهذا الفولكلور بعد ليلة الاحتفال يقولون إن صوت الشيخ الحصري وصل أرض القارة ('the mainland') في تنجانيقا كما ذكر لهم أهلهم وهم على بعد 40 كم تقريبًا.

انزعج الإنجليز كثيرًا، خاصة مع ترتيبات علي محسن لبروز أنور السادات وهو نائب رئيس مصر، مساويًا لمندوب ملكة بريطانيا -زوجها العزيز- وفي تحركنا بمواكب تثير الانزعاج فعلًا.... وكانت الفنادق قليلة ومتواضعة جدًّا، فرحنا نقبل ضيافة العائلات العربية في بيوتها أو مزارعها، حتى رحلنا... وقد بدا في الجو صمت الجمهور الإفريقي مريبًا وكأنه يشير إلى ذلك الذي يسبق العاصفة. إقليميًّا بدا أن التوازن بين كينيا وأوغندا وتنجانيقا يختل في إقليم شرقي إفريقيا، عند بحث إمكانية دخول زنجبار ترتيبات اتحاد شرقي إفريقيا أم سيعوقها نيريري... إلخ. لم تمضِ أيام بعد عودتنا حتى وصل "أحمد اللمكي" سفيرًا لزنجبار لدى عبد الناصر! وراح يتحرك بسرعة مستخدمًا "لوبي زنجبار" في القاهرة لإقامة أفضل العلاقات، إحداها صداقتي الوثيقة معه...

ذات مساء متأخر يوم 12 يناير 1964 – وبعد إقامة السفير أحمد اللمكي في القاهرة لبضعة أسابيع فقط – دق التليفون في منزلي حوالي الواحدة صباحًا، ثم حضر اللمكي يطلب مني الذهاب معه حالًا لمحمد فايق ليقابله بعبد الناصر الليلة لطلب تدخله العسكري فورًا في زنجبار ضد "الانقلاب المذبحة" الذي وقع تلك الليلة، وضرورة حماية العرب من المذابح التي يتعرضون لها في الجزيرة... لم أكن أستطيع خلال قيادتي للسيارة مصطحبًا "اللمكي" إلى "فايق" أن أعبر له عن استغرابي لطلبه، بسبب شدة انفعاله، وقسوة الخبر كما سمعه توًّا من الـ "بي. بي. سي" كذلك فإن السيد محمد فايق لم يُقصِّر في التعبير عن حزنه من ناحية ودهشته للطلب من ناحية أخرى. كما استبعد أن يوقظ عبد الناصر لإبلاغه في تلك الساعة..! وأخذ في تهدئة "اللمكي" مشيرًا إلى صعوبات ذلك، رغم إشارة اللمكي أن قوات مصر في اليمن أقرب إلى زنجبار وتستطيع الوصول بسرعة! وكان ذلك كله مستحيلًا. وبالضرورة وصل ذلك إلى اللمكي، لأننا كنا أقمنا منظمة الوحدة الإفريقية حديثًا ونقر مبدأ عدم التدخل، وأخيرًا فإن مأزقنا في اليمن بات معروفًا... فهل نوسع الرتق بالذهاب إلى زنجبار؟ ثم إن المذابح لن تنتظر إجراءات لوجستية طويلة متوقعة! وأنه لا سبيل إلا سرعة التدخل الدبلوماسي لوقف العنف.

لم نستطع أن نفعل شيئًا في ليلة واحدة لوقف "مذبحة" في

زنجبار. واستمرت وقائعها مع انطلاق من كانوا مهمشين إلى حمل السلاح ومهاجمة كل من شكوا في انتمائه للعرب، كما انطلقت المظاهر الأخرى في هروب ذوي الأصول العربية، أو وضع الكثيرين في السجون والاستيلاء على أراضيهم، بينما ذلك المأفون المدعو "جون أوكللو" الشرطي السابق من أوغندا الذي جاء ليلًا في قواربه لتدمير المعبد يشكل المجلس الثوري"، وأصدقاؤنا الثوريون، عبدالرحمن بابو وسالم أحمد سالم وغيرهم يتفرجون لبعض الوقت حتى شكلوا "الحكومة الثورية" الجديدة خلال أسبوع، وبدءوا التفاهم مع نيريري بعيدًا عن غوغائية أوكللو. وفي نفس الوقت كان السيد فايق وممثل الخارجية خلال أسبوع يبذلان الجهد الدبلوماسي لإنقاذ الموقف في اتصالات من القاهرة بل وسافر محمد فايق لدار السلام وزنجبار لنفس الغرض.

وتواترت الأنباء بسرعة عن مئات المسلحين الذين يبدو أنهم جاءوا من خارج الجزيرة ليقضوا على السلطنة ويقتلوا المئات ويسيطروا على الجزيرة.. ويقودهم "جون أوكللو" لإثارة الرعب، وتنفيذ خطة بريطانية للسيطرة على الجزيرة بدليل مسئولية القائد الإنجليزي للشرطة التي كان ما زال قائدًا للأمن فيها وقيامه بتنظيم وتأمين خروج السلطان لبريطانيا، وسجن علي محسن والقادة وعدم قتل" الثائرين" لهم، وإتمام كل ذلك فيما وصفه أوكللو نفسه بثورة التسع ساعات! (John Okello, *Revolution in Zanzibar* 1967)

وقد سُجِن علي محسن لعشر سـنوات..وطَردتْ الإدارة الجديدة المدعو "أوكللو" بعد أن أسمى نفسه الفيلد ماريشال، ليسجن في كينيا خوفًا من إشاعته روح التمرد ولو المأجور.

هذا الموقف الواضح للتدخلات الإقليمية لم يُفهَم لسنوات أعقبت ذلك... ولا مجال للحكى عنه. لأن ما شاع عقب الثورة هي قصص عن سلاح كان منقولًا من الجزائر لحركات تحرير المستعمرات في دار السـلام، وأن السـفينة حولت إلى زنجبار، إما بتعليمات من تنجانيقا وإما ما ذهب إليه البعض بالقول إن الجزائر كانت تقصد ذلك منافسة لمـصر! وترك البعض كل ذلـك ليقول إن عبد النـاصر كان قد اتفق مع علي محسـن لعقد اتفاقية دفاع مشـترك مع زنجبار، وإقامة قاعدة عسـكرية لمصر هنـاك..! وأن ذلك هو ما أخـاف الإنجليز ونيريري فتآمروا وضاعت زنجبار....!

جاء"ناصر الريامي" الباحث العماني لمصر في 2008 وأثار التساؤل معي، لأنه كان يعد كتابًا شاملًا عن زنجبار ولأن كثيرًا من الزنجباريين العرب في الخليج ما زال يظن أن اتفاق ناصر وعلي محسن على وجود عسكري مصري في زنجبار هو الذي دمر كل شيء وهو يريد التحقق لكتابه عن زنجبار، ورويتُ له القصة من زاويتي ثم صحبته إلى محمد فايق لإثارة دهشته وتأكيد النفي... ثم جاءتني أخيرًا أوائل عام 2014 الباحثة الشابة بكلية بنات عين شمس ولاء صابر لإعداد الماجستير تردد

نفس التساؤلات عن صحة رغبتنا في وجود عسكري في زنجبار..!. وأقسمت لها أنه لم يحدث ذلك ولم أسمع به...! وصحبتُها إلى محمد فايق ليؤكد الشهادة إزاء هذا التصور... ولا أفهم أنا كيف تبنى الأساطير سلبًا أو إيجابًا. ارتبط تأكيدنا بأننا سارعنا بالاعتراف بالأوضاع الجديدة في زنجبار، ولم نتدخل ضدهم مع وعود من الثوار – بعد زيارة فايق للجزيرة ولتنجانيقا – بتخفيف الضغط على العرب في شكل الاعتقالات أو التعرض لحياتهم، كما أكدنا لدار السلام أننا لا نريد التدخل وإنما العمل الإفريقي الوحدوي. وسهَّل الأمور وجود اليساريين لبعض الوقت في السلطة. لكن سرعان ما تم التخلص منهم أيضًا فأبعد سالم أحمد سالم سفيرًا في مصر، وذهب عبد الرحمن بابو فيلسوف الثورة إلى دار السلام.

أصبح عليَّ عقب ذلك رعاية "اللاجئين" سياسيين أو اجتماعيين وعلى رأسهم "السفير السابق" أحمد اللمكي، "وبيبي" عزة أي السيدة الكريمة زوجة الزعيم السابق، وأخته والأبناء جميعًا... ولم تبخل الرئاسة ولا السيد فايق بأي تكريم أو خدمات.

عندما مررتُ يومًا وأنا في زيارة لتنزانيا على مقهى مشهور بشارع الاستقلال بدار السلام. وجدت عبد الرحمن بابو جالسًا وحده، في حالة تأمل... وعندما فاجأته بوجودي وسؤالي، قال: أفكر في الثورة المهدرة!

حصاد الرحلة

كانت زنجبار إذن مصدر تفكير عميق في أنحاء شمال وشرقي إفريقيا، عن العرب وإفريقيا، وعن الإسلام ومذاهبه في المنطقة. لفت نظري فعلًا أننا لم نؤيد من قبل دعوات أهل "ممباسا" العرب والمستعربين والمسلمين اساسا في الانفصال أو حق تقرير المصير بأي شكل في فترة الاستعمار البريطاني، ولكنهم بدءوا التحرك في الشريط الساحلي (ممباسا). كما لفت نظري وجود الكثيرين من أصول عمانية أو يمنية، ووجود معتنقي الإسماعيلية الآسيويين شديدي الثراء، وشديدي الخلاف مع السنة وذوي النفوذ، في كينيا وأوغندا أو تنجانيقا إلى جانب معتنقي "الشيرازية"، بأصولهم الفارسية في زنجبار وبعض الساحل.

ومهما كان لبعض ذلك من أثر على سياسة مصر في تلك المنطقة أو ترتيب للعلاقات الهادئة مع هذا أو ذاك (فمثلًا جاء أغا خان راعي الطائفة الإسماعيلية إلى أسوان...) فإنني لا أذكر إلا اهتمامنا بتيار نيريري الإقليمي عن اتحاد شرق إفريقيا وتحدياته للعرب، مواجهًا لتيار كوامي نكروما صاحب "الولايات الإفريقية المتحدة" من موقعه في غانا غربي القارة... وأذكر أيامها مدى بث السوفييت مخاوف من النفوذ الصيني في تنزانيا أو شرق إفريقيا، أمام نفوذهم هم في الجنوب الإفريقي، وبعض التأثير على "أودنجا" في كينيا وهو الذي كان يغازل الصين بدوره...

كنت لا أتوقع نفوذًا صينيًّا حقيقيًّا في المنطقة، لثقتي بأن "نيريري"

يفـرق جيدًا بـين "الأوجاماعا" أي الجماعية أو المشـاعية الإفريقية، وبين "القرى الجماعية" أي الشـيوعية الصينية، وأنـه يتهم نكروما وناصر على السـواء، "بالأيديولوجية" أو أدلجة السياسة الإفريقية. وأن "عبد الرحمن بابو" و"سـالم أحمد سـالم" من زنجبار ليسـا من القوة، حتى في جزيرتهما، تمكنهـما من فرض اتجاه "ماوي" على المنطقة، وأن الصين آخذة في المعاناة من مبالغات "الثورة الثقافية" التي بدت مثيرة "للفوضى غير البناءة"، وإن كان البعـض قـد رأى فيها بداية تحرك جيل جديـد، نحو "صين جديدة" ما زلنا نحاول فهمه حتى الآن!

قد تكـون هذه الأجواء، قـد التهمتها تطورات أخـرى، فقد انتهيت من قراءة دراسـة معقولة عن الآسيويين في شرق إفريقيا، وكان يهمني ما لفتني إليه باحث تنزاني شهير هو "محمد عبدو الشريف" عن دور "الداو" (‘Daw’) أي القوارب الصغيرة نسبيًّا التي كانت تسرح في المحيط الهندي حاملة عمالًا آسـيويين يأتون للعمل بالسـخره في زنجبار والساحل، عبر تجارة آسيوية وعربية رائجة يقوم بها سلاطين ماليزيا كما كان شيوخ سلطنة عمان يقومون بدور إقطاعي ورأسمالي كبير، يباركهم أحيانًا اتصال سلاطين زنجبار بالسلطان المصري المملوكي الأصل.

كان لا بـد من إبراز دور مصر في معاونة حـركات التحرير الإفريقية لوقف موجة الدعاية عن "عرب ناصر" الراغبين في السـيطرة، وكان عليَّ إبراز دور "الرابطة الإفريقية" أمام دور سكرتارية منظمة التضامن الإفريقي

الآسيوي، صاحبة الإمكانيات السوفيتية والهندية والصينية. وجاءت إقامة منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا في مايو 1963 مناسبة لوحدة بعض الرؤى في القارة، خاصة وقد حشد عبد الناصر في خطابه عرضًا قويًّا لدورنا، "وكوسطيين" فعليين بقبول إقامة المنظمة في أديس، وليس في أكرا أو القاهرة، كما طلب عبد الناصر استضافة المؤتمر الأول للقمة الإفريقية 1964 بعد إعلان المنظمة، فوافق الجميع، مع استفزاز واضح لجماعة نكروما!

جـ. حول العلاقة مع نكروما

نكروما وجماعته

لم أكن أرتاح "لجماعة نكروما" وعدد من المحيطين به من الشخصيات السياسية، رغم تقديري لزعامته وأهميته، ورغم تحفظي على سلوك من حوله، وتصريحات أمثال "جورج بادمور" المفكر المعادي للشيوعية، و"كوجو بوتسيو" الطامح في السلطة الداخلية، وحتى "تتيجا" النقابي العمالي البارز، المنافس على السلطة بدوره، فضلًا عن منافساته على المستوى الإفريقي بدون تعقل أحيانًا. وقد رأيت أنهم كانوا يستفزون حركات التحرير الإفريقية بما أبدوه من تسلط دائم مقابل "دماثة" التفاعل من جانبنا معهم!

كان شاغلنا في الواقع هو منافسة أخرى ممثلة في زحف إسرائيل في القارة، إذ شعرنا منذ البداية أن إسرائيل تريد الالتفاف على مصر في حوض النيل

وتسعى إلى غرب إفريقيا كذلك. ونحن نواجهها بدورنا بتضامن عميق مع حركة التحرر الوطني في المنطقة الشرقية أولًا. كان حلف إسرائيل مع النظام العنصري في جنوب إفريقيا يلفت نظر مصر عبد الناصر إلى خطورة استقرار نظام الاستعمار الاستيطاني في جنوب إفريقيا مثله في فلسطين، وهكذا بدأت أفهم معنى تعدد أشكال الاستعمار، كما كنا نخشى أن تنفذ إسرائيل إلى بلد بثقل غانا ويدعمها المحيطون بنكروما، خاصة وأن إسرائيل كانت متعددة الإمكانيات والوسائل، وهي إن كانت غير منتجة لرأس المال أو المشروعات إلا أنها امتلكت التقنية والمشورة الفنية والقدرة على تدريب الشباب بل والتأثير على الغرب نفسه لصالحها.

كنت قد بدأت أنغمس في التيار اليساري في مصر، وكدت أفهم أن حركات التحرير الإفريقية في معظمها ذات اتجاه يساري، لذلك لم أسعد باللقاء "بجورج بادمور" في الرابطة الإفريقية، 1958 أو 1959 لا أذكر تمامًا، وهو القادم كمستشار للرئيس نكروما، صاحب السمعة الوطنية العالية في مصر، بينما "بادمور" نفسه صاحب كتاب "الوحدة الإفريقية أو الشيوعية" ('Pan-Africanism or Communism')، المكتوب بروح عدائية صارخة للأممية الشيوعية. دهشت من الكتاب لأني كنت أقرأ وأتابع مع الأصدقاء من قيادات التحرر الوطني عن مشروع نكروما التحرري الوحدوي بدوره، مثله مثل عبد الناصر وكنياتا. ولم يلقَ الكتاب أو ادعاءات صاحبه ترحيبًا كبيرًا، ولأن السوفيت والصينيين كانوا يدعمون علاقاتهم بقوة مع حركات التحرير، فقد أصبحت سكرتارية التضامن الإفريقي الآسيوي بالقاهرة

وبوجود تمثيل سـوفييتي وصيني بها كأنها همزة الوصل بالأممية الشيوعية التي يتخوف منها بادمور وتخيف نكروما أيضًا.

كان جورج بادمور وبعض المحيطين بالرئيس نكروما يدفعونه إلى تصور منافسته لعبد الناصر، أو الاعتقاد أن عبد الناصر يعمل على الحد من نفوذه في القـارة، لصالح القومية العربية وليس الوحدة الإفريقية التي يدعو لها الرئيس نكروما. وكان قد أقلقني في كتاب بادمور حديثه عن "الصهيونية السـوداء"، ضمن فكر العودة لإفريقيا من الدياسبورا الأمريكية خاصة. كذلك كان قلقي من أفكار "كوجو بوتسيو" – مستشار نكروما – الرافضة لما يسميه النفوذ العربي. وكنا في ذلك الوقت نعتقد بقدر من المبالغة أن كل مَنْ يهاجم العرب في إفريقيا إنما يصدر عن نفـوذ إسرائيلي من خلفه. لكن بوتسـيو بدا لي حالة مختلفة تدخل في مجال المنافسة السياسية. وقد فزعت من تعبيراته التي قرأتها بنفسي في تقرير رفعه لنكروما!

بل وذهب "بادمور" بعيدًا فيما يشبه إثارة الخلاف مع ناصر نفسه حول حركة التضامن الأفرو آسيوية، والمبادرة بعقد مؤتمر جميع الشعوب الإفريقية (‘All-African Peoples’ Conference’, AAPC) في أكرا في أقل من عام تقريبًا على مرور انعقاد المؤتمر الأفرو آسيوي الأول (1958) بالقاهرة. أما عن نفسي فسآتي لاحقًا على ما لقيته من متاعب الصراع السوفيتي الصيني حول قضايا التحرر وممثليها في مصر!

لكـن الرئيس نكروما نفسـه فاجأ الجميع بطلـب الزواج من مصرية

بطريقة رواها لي محمد فايق نفسه – بحكم أنه مدير مكتب الرئيس– أنها كانت مثيرة وودية حقًّا، وضد كل التوقعات الملغومة فيما عرضته عن موقف "بادمور" و"بوتسيو". بل وكنا أحيانًا نقول إنه زواج "بان أفريكانزم" مع "بان أرابزم"! والحق أن "د. ميشيل باخوم" الأستاذ بكلية الهندسة عندئذ قام بدور في هذا المجال، باختياره مع أحد الوزراء الأقباط أيضًا "العروسة" المناسبة استجابة للمبعوث الغاني. وأذكر أنه كان يدعوا "الشيخ سعيد" المقرب من الرئيس نكروما (وإن كنت قرأت مؤخرًا أن ثمة اتصالات مباشرة بعائلة العروس سابقة على مفاتحة عبد الناصر)!

مع ديبويس ويسار النكرومية

فيما بعد فهمت لماذا كان تركيز إدارتنا المصرية على مقر حركات التحرير بالزمالك، وكأن عليَّ أن أبرز تميز العون المصري عن عون الدول الشيوعية أو غيرها. لذلك لم يرتح لوضعي الكثيرون من البيروقراطيين في مصر نفسها مع معرفتهم باتجاهاتي اليسارية، إلا أني كنت شديد الحماس للزعامة الناصرية في القارة. لكن عانيتُ من الأرتباك في الاوساط اليسارية العالمية أو الوطنية، خاصة تجاه الصراع الصيني السوفييتي.

وفي فترة وسط الستينيات قابلت "ديفيد ديبويس" ووالدته "شيرلي جراهام ديبويس" زوجة المفكر الإفريقي المعروف "وليم ديبويس"، وأدمجوني في يسار النكرومية أيضًا! بل ومع يساريين مصريين راديكاليين! جرى ذلك

عندمـا جـاءا إلى مصر بعد وفاة المفكر الكبير في أكـرا عام 1963، وقرأت معهما قصيدة وليم ديبويس نفسـه عن "السويس وفرعون النيل" المنتصر على "الأسـد الاستعماري" خلال العدوان الثلاثي على مصر 1956 عقب تأميم القنال. ولا أستطيع أن أغادر هذه النقطه قبل أن أنقل للقارئ ترجمتي لجزء من قصيدة وليم ديبويس التي شدتني لهذه العائلة، ونشرتها في مقدمتي لكتاب ديبويس: "روح الشعب الأسود" (" The Souls of Black Folk") الذي ترجمه إلي العربية أسعد حليم:

نهضت مصر الشابة وأمسكت بقناتها

قالت ما هو لي... فهو لي

سخرت منها أوروبا العجوز وصاحت

إن الكلب لا بد أن يتعلم كيف يعوي

...

صرخت إسرائيل الصغيرة صرخة مدوية

هل يركب فرعون من جديد؟

لكن ناصر أشار للغرب بنظرة نافر

لقد انقلب السحر على الساحر...

وبعد بعض أبيات أخرى عن أطراف المعركة من الغرب يقول:

إلى الشرق تتجه الطبول بالغناء

وتعلو الشمس المشرقة عالية الآفاق

وترفع إفريقيا رأسها إلى السماء

لنرى كل آسيا... تشتعل حمراء...

ذهبت مناقشاتنا مع ديفيد وصحبه بعيدًا عن فلسفة ديبويس حول الوحدة الإفريقية، والشيوعية، وكيف قاوم "جورج بادمور" مكانة الرجل لدى الرئيس نكروما. فقد كان وليم ديبويس في وضع معلم الجميع ووالدهم، وهو ماركسي أممي بطبعه، وليس له تحفظات على العلاقة بالسوفييت. وقد لفت نظري – وما زال – ضعف مركز هذا المفكر عند معظم مثقفي القارة مع أنه أحد المؤسسين الحقيقيين لفكر الوحدة الإفريقية، وليس "ماركوس جارفي" كما ذكر بادمور في كتابه، ومثله الكثير.

وبعد ذلك عرفت أن حرم الدكتور ديبويس قد اختارت مصر – بعد الانقلاب على نكروما – لتقيم فيها معظم شهور العام، بل وبعد الإقامة لعدة شهور من عام 1966 طلبت مني السعي معها لشراء شقة في موقع على النيل الذي أحبه الدكتور وليم ديبويس، وكان من حظها أن وجدنا شقة جميلة في عمارة تقابل فندق شبرد الذي نزل فيه ديبويس 1958 وعلى

نفس المسـافة من النيل، فكان فرحها غامرًا لدرجة أشـعرتني بأني فرد في هـذه العائلة. وظل فيهـا ديفيد ديبويس ابنها حتـى انتقل لأخرى وهبها لأحد المصريين – قبل وفاته منذ بضع سنوات فقط.

كانت مفاجأة لي ما ذكره العائدون من أكرا عن فلسـفة اللاعنف التي كانت رائجة في الخطاب النكرومي، والتي تعرض لها "فرانز فانون" بالهجوم. كان عـليَّ أن أدرس أثـر "الفانونية" في إفريقيا مقابـل احتمال تأثير الجالية الآسـيوية في نشر الغاندية، والتي قدمت عنها دراسـة. كانت المناقشات حول أفكار الزعماء الإفريقين القياديين في القارة تشغلني بالفعل، ولم يكن ذلـك شـاغل الحركة الثقافية في مـصر إلى حد كبـير، إلا في حدود المعنى العام لتحرير إفريقيا أو "دور مصر" في إفريقيا. وكانت الأسـئلة تُوجَّه لي كأني أحمل معهم السلاح أو أن إفريقيا كتلة واحدة "مشتعلة بالنضال" أو الخيبات... بينما كانت هذه المناقشـات تجري في الوسـط الإفريقي عامة، وأذكر هنا بعضها:

كنت أشعر بحرج ممثلي حركات التحرير الإفريقية من الحديث عن عدد من المسائل الإفريقية ذات الحساسية، مثل الحديث عن سياسة تنزانيا وهي راعية من رعاة حركات التحرر، أو عن سلوك حزب المؤتمر الوطني الإفريقي مع منافسيه بينما يبدو خاضعًا للحزب الشيوعي في جنوب إفريقيا، وأخيرًا الحرج الأكبر من معالجة موضوع إسرائيل. وكنت أحترم موقفهم تمامًا.

د. إسرائيل وإفريقيا

ليس صدفة أن كان الاهتمام بمشكلة وجود الكيان الصهيوني (إسرائيل) في قلب اهتمام السياسة المصرية، منذ حرمان إسرائيل من حضور مؤتمر باندونج في إندونيسيا 1955 وبالتالي من حضور مؤتمر الشعوب الإفريقية والآسيوية 1958 مع تركيز مصري واضح على محاصرة مشروعاتها للتغلغل في دول حوض النيل، حتى قبل استقلال السودان أو التحرك نحو إثيوبيا. وقد بدا وعيي الشخصي بذلك مع ملاحظة أن حركات التحرير الأولى التي مُثلت في الرابطة الإفريقية، جاءت من أوغندا وكينيا وزنجبار والكونغو، وأحاطت أيضًا بإثيوبيا من أريتريا، بهدف حماية شرقي إفريقيا من الاستعمار التقليدي وإسرائيل، حيث أطلق على إسرائيل بعد ذلك عميلة الاستعمار ثم الاستعمار الجديد، ثم الإمبريالية الفرعية... إلخ.

تصورت أن القارة عند مصر هي مجموعة مناطق حيوية، الأولى حوض النيل وشرقي إفريقيا، حماية للنيل وكطريقنا إلى بقية إفريقيا، وبتصورات مصر الأولى عن مثلثات مصر والسودان وليبيا أو إثيوبيا، كما كانت تُردد بعض الكتابات في صحفنا. المنطقة الثانية هي الجنوب الإفريقي في مواجهة نظم الاستيطان الأبيض المساندة للمشروع الإسرائيلي في جنوب إفريقيا وروديسيا الشمالية والجنوبية وناميبيا، بل والاستعمار البرتغالي المتخلف في أنجولا وموزمبيق، والذي كان يمكن التحرك ضده بسهولة. أما الثالثة فهي منطقة الغرب الإفريقي، فكانت تعني كثافة إسلامية ملحوظة التأثير

وخاصة في السـنغال ونيجيريا، كما كانت تعني سوقًا اقتصادية ذات قيمة كبرت فيها مشروعات شركة النصر، والتجارة الخارجية عمومًا.

كانت إسرائيل تعاني حتى ذلك الوقت من قرارات مؤتمرات الشعوب الإفريقية الآسيوية، وحتى مجموعة الدار البيضاء – والتي وصفت إسرائيل بأنها أحد أوجه "الاسـتعمار الجديد" بينما إسرائيل تضع نفسها بين الدول النامية والعالم الثالث، كـما كان بعض المتحذلقين يعمق الخلاف بالتفرقة بـين "Neo or New colonialism"، مـع الرغبة في اسـتبعاد إسرائيل من دائرة الاستعمار.

وكانت إسرائيل تواجهنا منذ البداية بادعاءات عن أنها دولة ناشئة، ونامية مثل الدول الإفريقية بل وذات طابع اشـتراكي بدليل وجود الهستدروت والموشـافِ... إلخ، وفي نفـس الوقت تحاصرها الـدول العربية، ومصر خاصـة، بينما هي راغبة في الانضمام لمجموعات العالم الثالث... إلخ، كما تغري بمضاعفة زيارات المسـئولين والشـباب الإفريقي لها للتعرف على مشروعات الكيبوتزات والمؤسسـات كنظم زراعية جماعية وتعاونية على نحو يمكن أن يفيد الدول الحديثة في إفريقيا، كما كان الهسـتدروت تنظيم إسرائيل العمالي يقوم بنشـاط كبير في الاتصال بالحركات العمالية الناشـئة في إفريقيا مـع التركيز على دول الفرنكفـون عمومًا وبعض الأنجلوفون وخاصة القيادة البارزة مثل توم مبويا في كينيا.

لم تكن الوثائق الرسمية المصرية (خطب المؤتمرات ووثائقها) تميل إلى

صياغـة الأفكار الهجومية إلا مـا جاء منها في إعلان كتلـة الدار البيضاء أو مؤتمر الشـعوب الإفريقية الآسـيوية، لكن وثائق يناير 1956 عن لجنة الشـؤون الإفريقية، أو الميثاق الوطني أو خطابات عبدالناصر الرئيسية لم تشـأ أن تضع علاقتنا الإفريقية مباشرة أمـام الحضورالاسرائيلي، وإنما في مواجهة الاستعمار بأشكاله، وخاصة في السنوات الأولى لثورة يوليو، لكننا في التطبيق السـياسي، كنا في غاية الدأب على متابعة "النشـاط الإسرائيلي في إفريقيا" وكنت أحيانًا أكون المسـئول عن الخريطة التي تلحق بالتقرير السياسي للرئيس قبل سفره للقمم الإفريقية عن الموقف في إفريقيا، متعلقة بالفصل الخاص عن النشـاط الإسرائيلي التي يظهر عليها بالعين المجردة ألوان وجـود مصر (بالأخضر) وإسرائيل (بالأحمر) مع بعض الأنشـطة العربية البارزة (بالأزرق).

وكانت سـفاراتنا وأي أجهزة عاملة في القارة تتابع تحركات إسرائيل بهمة ملحوظة، أذكر منها طرفة يوم جاءنا في تقرير إحدى سفاراتنا كيف أقامت السفارة الإسرائيلية مهرجانًا لاستقبال "بذرة" للثروة الحيوانية في التوجو على ما أذكر وتضم الشـحنة "بقرة وثورًا" مشـحونين في الطائرة القادمة من إسرائيل! ولم أتصور أن تشحن حيوانات بهذا الحجم في طائرة إلا أن تكون خاصة جدًّا! لكن ذلك كان الأسلوب الإسرائيلي في الدعاية ومواجهة النفوذ المصري البارز في التجمعات الإفريقية. أما تعاونها النووي بالمفاعلات مع جنـوب إفريقيا فكان أكثر التهديـدات خطرًا حتى ألغى "مانديلا" التسابق النووي في بلاده.

بعد ذلك نضج الأسلوب الإسرائيلي بعد موجة الانقلابات العسكرية في الستينيات، مثلما حدث في استثمار ضجيج عيدي أمين، وموبوتو، بصداقاتهما مع إسرائيل، وبدأت الأخيرة في استغلال ضعف أداء مصر بعد 1967 تتسلل في صورة تدريب الجيوش وخاصة الحرس الجمهوري وأعمال الأمن والمخابرات، بل وبأعمال الوساطة لدى الدوائر المالية العالمية. وأذكر ما قرأته من أدبيات القيادات الصهيونية عن تصورات تلك الدولة (بن جوريون / هاركابي) وكذلك ما أورده مكسيم رودنسون في كتابه عن الصراع العربي الإسرائيلي، وكيف ناقش بأقوى عمق ممكن مزاعم إسرائيل، في قيامها، وفي زعمها عن الكيبوتزات والهستدروت كمؤسسات اشتراكية بما زلت أذكره حتى الآن.

ولا بد أن أنوه هنا إلى مشكلة في عملنا السياسي عمومًا منذ الفترة الناصرية، وهي عدم إتاحة المعلومات الكافية المسموح بإتاحتها في أي دولة أخرى، وخاصة في العلاقات الخارجية، ومِنْ ثَمَّ لم ألحظ كتابة كافية للرأي العام عن الأنشطة الإسرائيلية في إفريقيا، إلا بعد توقيع اتفاقات كامب ديفيد حيث يمكن رصد أكثر من عشرين كتابًا في هذا الصدد. قلت قد تكون تلك ظاهرة وطنية تعبر عن الروح الإيجابية ضد كامب ديفيد، وتشاركنا معاركنا ضد هذه الاتفاقيات. لكن الدلائل قديمها وحديثها قائمة، وقد شعرت بآثار ذلك من الدهشه عندما قدمت دراسة في ندوة مركز دراسات الوحدة العربية بعمان سنة 1983 (العرب وإفريقيا) وأعمالها منشورة بالعربية والإنجليزية عن النشاط الإسرائيلي في إفريقيا،

مذكـرًا الأصدقاء العرب بأننا كنـا نحاصر إفريقيـا، لدرجة أن صدرت كتابـات إسرائيلية وغيرها تتحدث عن إسرائيل في العزلة، كدولة منبوذة (Pariah State).

غير أن هذه العزلة بدأت في الانهيار منذ منتصف السبعينيات، وانقطع تأثير الستينيات وأفكارها، وذلك باختيار الرئيس أنور السادات للمعسكر الغربي الذي باتت أمريكا فيه – في نظره – "تملك 99 % من أوراق اللعبة!" فانعكس ذلك على مصر من زوايا مختلفة، في سياستها العربية والإفريقية. حدث ذلك في خضم التساؤلات عما إذا كانت التطورات الطبقية هي سبب انهيارات ما بعد انتكاسـة 1967، أم أنها التحولات على مسـتوى الصراع الـدولي والحرب البـاردة، نتيجة حالة الركود السـوفييتي، أمام التصاعد الأمريكي. وبدا السادات وكأنه أراد أن يؤكد للسادة الجدد في الغرب أنه يشتري رضاهم بتسليم قيادة العرب وإفريقيا لمن يشاء، وراح مع "صديقه كيسـنجر" كما كان يسـميه، يعلن اعتزازه بسياسته الجديدة، مصادقًا شاه إيران والعائلة السعودية، كما يعرف الجميع.

ومن يطلع على الكتاب الهام لغسان سلامة (الباحث المتميز ووزير الثقافة اللبناني لفترة) عن "السياسة الخارجية للمملكة السعودية منذ عام 1945" (طبعة معهد الإنماء العربي 1980) يقرأ عديدًا من الوثائق والمراسلات بين كيسنجر والثلاثة المذكورين، الملك فيصل والسادات والشاه، مقرونة بسياسة البحث عن حادث أو ظروف لرفع سـعر البترول في أوائل السبعينيات،

لضرورات إقتصاديـة أمريكية دولية يشرحها الكتـاب. ومِنْ ثَمَّ تحولت حرب 1973 التي كانت تعد لها مصر وفق خطة ممتدة من 1967، وبعد أن أدى الدفع الشـعبي لأن تنفذ في ذلك الوقت، إلى خطة السادات المناسبة لموقف سعودي يهدد إزاءها بقطع البترول أو أن يضاعف من سعره لعشرات المرات!

هذا ما جعلني أواصل هذا التفكير، حين قدمت بحثي عام 1983 عن "إسرائيـل وإفريقيا". وتحدثت فيه عن مدى التسـارع في مقاطعة العديد من الدول الإفريقية لإسرائيل بقطـع العلاقات معها حين حاربت مصر 1973. رأيت في ذلك دفعًا من الدول الغربية لهذه الدول بقطع العلاقات، بما يبدو مجاملة للعرب، وهو في الغالب لإغراء الدول العربية البترولية لصب قـدر من أموال البترول الغامرة في خزانة الدول المتضررة بسـبب الحرب في الأراضي الإفريقية. هذا التحليل أسـماه بعض أعضاء الندوة بالتفكير التآمري، ولكن مسـاعدات التعويض للدول الإفريقية قد بلغت بالفعل أواخر السـبعينيات أكثر من 30 مليار دولار وفق تقارير الشاذلي العياري مدير البنـك العربي لإفريقيا في الخرطوم، وهـي المليارات التي صبت في خزائن الشركات الأوروبية متعددة الجنسية التي قامت بالمشروعات عبر ما سمي بالحوار الثلاثي – العربي الأوروبي الإفريقي!

وتحملت إسرائيل نتائج "الحملة السياسية" مقابل المعونات الغربية لها تعويضًا اقتصاديًّا عن الخسارة السياسية. وما إن هدأت "موجة البترول"

أوائل الثمانينيات حتى بدأت إسرائيل التسلل تدريجيًّا للعواصم الإفريقية، مما جعلني أعود في نفس البحث (1983) لما سُمي بالتفكير التآمري، بنجاح مساعي إسرائيل نحو الدول الإفريقية لإعادة العلاقات معها، بإغراء مساعدتها لهذه الدول عند البنك والصندوق الدوليين لمنحهم القروض والمعونات. ودللت على ذلك بأمثلة عن موقف زائير وغيرها من الدول الإفريقية. كان موبوتو سي سي سيكو رئيس زائير حينئذ قد بدل خطابه من الحديث عن "أخوة العرب" إلى "الصداقة الإسرائيلية"... وكذلك موقف الرئيس جومو كنياتا الذي كان في أول أكتوبر 1973 يستنكر مظاهرة "قطع العلاقات مع إسرائيل" على أنها نوع من "الدعارة السياسية" حسب تعبيره، ليقوم بنفسه بعد أقل من أسبوعين فقط بقطع العلاقات مع إسرائيل! ولم نعرف وفق أيـة ضغوط أو اتصالات جعلته يقوم بذلك، لكن كينيا كانت من الدول الأولى في إعادة العلاقات مع إسرائيل!